الخيانة الزوجيّة

ببساطة أقول، لا تولد خيانة عند الرجل إلاّ لأنّ هناك خيانة أخرى تقابلها عند المرأة. كلّ خائن، أمامه امرأة خائنة أيضًا، وإلاّ فالخيانة لا تحصل. ما هي الأسباب الكامنة وراء الخيانة الزوجيّة؟

الدخول في تحليل أسباب الخيانة الزوجيّة، هو كمن يغرق في متاهات بالغة التعقيد، لأنّه في الحقيقة ليس من سبب واحد وراء هذا الفعل الشنيع، وهذا الانحراف الخطير، والكبير. هناك على الدوام جملة أسباب معقّدة ومتداخلة تعمل في أصحابها، عن وعي، وعن غير وعي، فتولد الخيانة. من الأسباب الكبرى للخيانة:

١- هناك ماضي الإنسان وتربيته. قد تكون ثمّة عوامل متوارثة: الابن عن أبيه، وما للتربية من تأثير في ظهورها وإطلاقها. ٢- مفهوم الرجل والمرأة عن الزواج ٣- ضعف الطبيعة البشريّة، وانعدام ضبط النفس والتمييز. ٤- النفور من الزوجة وعدم الانتباه إلى أنّ في الزوج أيضًا ما يدعو الى النفور، وأنّ الحياة الزوجيّة لا تستمرّ إلاّ بالمحبّة والتضحية المتبادلتين، والاحترام المتبادل أيضًا. ٥- عدم تفاهم الزوجين على أمور كثيرة. ٦- عدم إيلاء العائلة القدر اللائق من العناية والاهتمام والاحتضان والمحبّة والمتابعة. ٧- عدم احترام حياة الأولاد في العائلة، فضلاً عن تغييب القدوة الأبويّة في البيت، لأنّ احترام حياة الأولاد، وسلامتهم النفسيّة، وحسن نموّهم، أمور من شأنها أن تساعد على خنق كلّ توجّه منحرف وغير صحيح ضدّ الحبّ الزوجيّ، والأمانة الزوجيّة، كما من شأنها أيضًا أن تشدّ أواصر العلاقات بين الأفراد في العائلة الواحدة. ٨- الرغبة في اختبارات جنسيّة يدعو إليها الإعلام المعاصر، من أفلام إباحيّة، وصور محرّضة على الشهوة تنتشر هنا وهناك، فضلاً عن مجلاّت وأفلام وسواها.

أقول هذا لأنّ أعدادًا من المتزوّجين تظنّ أنّ ما يعلن في الشارع، وعلى الشاشة، يجب أن يطبّق، وهذا انحراف كبير في التفكير. ٩- عدم نضوج الزوجين أو أحدهما على الأقلّ، عند الإقبال على الزواج، لأنّ من يخون زوجته، لا يعرف في الأساس لماذا تزوّج، ولماذا اختار زوجته بالذات. ١٠- فارق كبير في السنّ بين الرجل والمرأة مع توفّر عوامل مساعدة لذلك ومحرّضة عليه.

الى ذلك، فإنّ للخيانة الزوجيّة أسبابًا من نوع آخر: جحيم مستتبّ في البيت الزوجيّ، ضجيج، ضوضاء، عدم تفاهم، خلافات عامّة، مشاحنات، تصادم مع الأولاد، مشاكل من خارج البيت الزوجيّ ذات صلة بالعمل، أزمات اقتصاديّة (ضائقة ماليّة)، بحيث يأتي الإقبال على الخيانة الزوجيّة من باب التخلّص من كلّ مشاكل البيت الزوجيّ، ومحاولة للتغيير، وفتح صفحة جديدة مع وجوه جديدة. وهذا وهْم وضلال، لأنّه يعتمد ما هو خاطىء لإصلاح ما هو معوجّ. فضلاً عن ذلك، يظنّ كثيرون أنّ هذه المحاولة هي شكل من انتصار على مشكلات باتت قاسية على أصحابها. كذلك كثيرًا ما تكون هذه الخيانة رغبة في عودة إلى الوراء، إلى ما قبل الزواج، إلى زمن يصبح فيه الرجل مراهقًا، فتيًّا، قليل الهموم والمشكلات والضغوطات، يسرح ويمرح على هواه ودونما رقيب أو حسيب. إلاّ أنّ هذه العودة لا يمكنها أن تصلح شيئًا، بل إنّما تحلّ المشاكل والخلافات، بالوهم فقط. فالإنسان، الذي يقبل على الخيانة، إنّما يدمّر نفسه وبيته.

إلى ذلك، كثيرًا ما يكون الباعث على الخيانة رغبة دفينة في الرجل مفادها أنّه تقدّم في الأيّام من دون أن يحقّق شيئًا في حياته حتّى الساعة، وهو يرغب في أن يقوم بخطوة (غير شكل) من شأنها أن تكسبه وقتًا إضافيًّا يخوّله أن يكون أكثر إنتاجيّة في السنين الآتية والمتبقّية من الحياة. وفي هذا وذاك من الأسباب، تبقى الخيانة الزوجيّة انحرافًا وخروجًا عن الالتزامات القديمة والحبّ الزوجيّ وسلامة العائلة.

والمضحك أنّ الذين يختبرون الخيانة الزوجيّة، يعودون في نهاية المطاف إلى الزوجة كي تغسل لهم ثيابهم، وتكويها وتعدّ الطعام وتؤمّن الدفء في البيت. لا، بل يلومونها إن هي قصّرت في أمور الأولاد، وواجبات البيت الزوجيّ المختلفة، وغير ذلك. والأغرب من هذا كلّه، أنّه كثيرًا ما يكون للأب الذي ذاق خبرة الخيانة، موقف ذو أساس أخلاقيّ من اعوجاج في بعض سلوك أولاده، وبناته على وجه التحديد. وهذا ليس خطأ في الأساس، إلاّ أنّ الخطأ هو أن نتابع أولادنا بمنتهى الدقّة، وفي الوقت عينه نهمل مراقبة أنفسنا فنسقط إلى أسفل الدركات التي نمنعهم ونزجرهم كيلا يتعرّضوا لها.

في الخيانة الزوجيّة، يكون الاستغناء عن الزوجة طمعًا في وجه امرأة اخرى، ولكن من دون التخلّي الكامل عن الزوجة. في الخيانة الزوجيّة، يتخلّى الزوج عن امرأته، طمعًا في جسد امرأة أخرى، طمعًا في جسد آخر، طمعًا في صوت أنثويّ آخر، طمعًا في رائحة أخرى، طمعا في هيئة اخرى، طمعًا في تغيير، طمعًا في صورة وجه جديد، طمعًا في علاقة جديدة

– عن جهل وغباء – وذلك كي نهرب من رتابة الوجوه في العائلة، لأنّ الإلفة سيف ذو حدّين في الزوجين، فهي من شأنها أن تضفي على العلاقة الزوجيّة مزيدًا من العمق، كما من شأنها أيضًا أن تدخل الملل والرغبة في التغيير، وهذا كلّه لا معنى له. والسلسلة طويلة لو رمنا الاسترسال... وكلّها تعني في النهاية، أنّ الانبهار بالزوجة، عاد غير موجود كما كان الحال قبل الاقتران بها. السؤال الآن هو: هل تقوم الخيانة الزوجيّة على قاعدة الجنس، أو بسبب الجنس؟

بكلّ تأكيد لا، ليس الجنس السبب العميق وراء الخيانة الزوجيّة. الأسباب البعيدة وراء الخيانة الزوجيّة هي نفسيّة وشخصيّة في الأساس، أمّا الاعتبارات الجسديّة والجنس وسواها، فتأتي تباعًا. الإنسان، في العادة، ينزلق نحو الخيانة لأسباب عديدة مثل الفتور في الحياة المشتركة، الضجر من الرتابة، الملل من رؤية زوجته باستمرار وسواها مثلها، ويكون الانزلاق إلى الجنس نتيجة، لا سببًا. الخيانة، في قناعتي لا تبدأ بسبب الجنس، والأسباب العميقة وراءها تتّصل بعدم النضوج. الانزلاق الى الجنس، بفعل الخيانة الزوجية، ليس سببًا على الإطلاق، بل نتيجة، ولكن يجب أن نعرف أنّ للغريزة قدرة رهيبة على سدّ الفراغ بالخداع والتضليل.

وربّما لا يشعر الزوج أنّ زوجته تشبع كيانه (هنا ضرورة التمييز بين الكيان والجسد). قد يجدها في العمق تافهة عندما تتكلّم، وهو يريد امرأة برّاقة مثله في الكلام، وقد يكون هو نفسه مخدوعًا في تقويم حقيقة نفسه. ربّما لا يكون هو نفسه برّاقًا على نحو ما يطالب زوجته به. المشكلة أنّ الزوج أدرك أنّ زوجته تافهة، إلاّ أنّه لم يلحظ تفاهتها عندما قرّر الاقتران بها، كذلك لم يتأمّل في ذاته كفاية، ليرى إن كان فيه أيضًا تفاهة كالتي ينفر منها في زوجته. قصير النظر من يلتفت إلى غير امرأته، لأنّها فقدت النضارة الحسّيّة، فهو لا ينتبه إلى أنّه هو نفسه عاد لا يمتلك النضارة أيضًا. إذا كان يريد زوجة شابّة، عليه أن يسأل نفسه أيضًا هل هو شابّ. وإذا كان من المستحيل أن يغيّر امرأته، فمن المستحيل أيضًا أن يتغيّر هو. سلامة الحياة الزوجيّة تبدأ عندما يفكّر الإنسان في أنّ التي أمامه قد تكون في الواقع اكثر فهما منه، وأعمق نضوجًا، أكثر بكثير ممّا يظنّ. ولكن ماذا نفعل إذا كانت المرأة دون الرجل كما هو الحال في المجتمعات الشرقيّة؟ والمضحك المبكي ماذا لو أنّ الميول إلى الخيانة ظهرت بعد سنين على الزواج. والطامة الكبرى أيضًا أن تظهر علامات الخيانة قبل مرور سنة على الزواج. في الحالتين، نستطيع أن نتكلّم على هشاشة المعايير التي عليها بني هذا الزواج عند المعنيّين بالخيانة.

إذا ظهرت الخيانة بعد مرور عقدين أو أكثر على الزواج، هناك مشكلة، فنحن من حقّنا أن نسأل الزوج: كيف كان السلام بينه وبين زوجته طوال هذه المدّة؟ أمّا إذا بدأت علامات الخيانة قبل مرور سنة على الزواج، فهذا يعني أنّ المقاييس، التي عليها قام هذا الزواج، هي ضعيفة، سطحيّة، وواهية، لم تصمد إلاّ شهورًا، ولعلّها كانت كالجمر في الرماد منذ ليلة شهر العسل...

إلى ذلك، أعتقد أنّ ثمّة اعتبارات أخرى تؤدّي دورًا أيضًا في بروز الخيانة وانطلاقتها: ١- قد تهمل الزوجة العناية بمظهرها، بينما الزوج جائع إلى ما يملأ عينيه من بريق وألوان. وتصرّ الزوجة على التمادي في إهمالها مظهرَها، وفي الوقت عينه يصرّ الزوج على أنّ عينيه جائعتان إلى بريق وألوان، وإلى كلّ جديد. في هذه الحالة تكون الزوجة على قدر كبير من السطحيّة، والغباء إذا جاز التعبير، ويكون رجلها مثلها. هي لا تنتبه، وهو يصرّ على ما يريد. هي لا تنتبه إلى حاجات زوجها، وهو لا يقول لها إنّها تهمل نفسها ومظهرها. قد تهمل المرأة العناية بشعرها، بإطلالتها، بمظهرها، بلباسها، ويأتي الرجل فيقرأ كلّ هذا على أنّه إهمال له ولأحاسيسه، ولحقوقه، في الصميم. قد تلبس الزوجة ألوانًا لا تحاكي عينيّ زوجها في الأساس، أو قد تظهر فظّة وغليظة في تعاطيها الشؤون العامّة. قد تظهر بعكس

> «وسمعتم أنّه قيل: لا تزنِ. أمّا أنا فأقول لكم: من نظرَ إلى امرأة ليشتهيها، زنى بها في قلبه. فإذا جعلتك عينك اليمنى تخطأ، فاقلعها عنك، لأنّه خير لك أن تفقد عضوًا من أعضائك ولا يلقى جسدك كلّه في جهنّم».
>
> (متّى ٥: ٢٧- ٢٩)

ما يريدها زوجها، وهنا المشكلة الكبرى التي تأتي لتقول أن ليس من تخاطب بين الاثنين في صغائر الأمور وكبيراتها، فالعين الجائعة والفارغة عند الزوج، والإهمال عند الزوجة لأمور كثيرة ممكنة، من شأنها أن تهدم البيت الزوجيّ على أصحابه، في الكثير من البيوت.

ثمّ إنّ المرأة المهملة مظهرها، لا تحمل محبّة لرجلها، إذا كان جائعًا إلى الألوان وإلى التغيير وسواها. وهكذا فإنّ وراء الخيانة، بالمعنى العامّ، البعيد دلائل كثيرة على انقطاع الحوار بين الزوجين،

وعلامات لا تحصى على انعدام المحبّة أيضًا. طبعًا من الخطأ أن يطلب الزوج من الزوجة ما لا تقدر عليه. ومن الخطأ أن يطالبها أن تكون حسناء فاتنة وهي أمّ لسبعة أطفال. من الخطأ أن يطالبها بتقليم أظافرها، وهي ليس عندها الوقت لغسل وجهها. أمور كثيرة لا يستطيع الزوج أن يطالب زوجته بها بسبب الإلفة العميقة التي باتت تقوم بينه وبينها بعد مرور سنين على زواجهما.

لا تسمح الإلفة اليوميّة بين الزوجين بأن يكون الآخر جديدًا في كلّ شيء. إذ من أين يستطيع الشريك أن يأتي بما هو حقًّا جديد، ما دمنا نعرف في العمق وفي العلن كلّ شيء عن شخصيّته ومزاجه وفكره؟ أحاديث الشريك أعرفها، أفكاره أو أفكارها أعرفها وتعرفها، مواضيعه أعرفها... وإذا كان الآخر في الزواج على هذا القدر من الانفضاح، فمن أين له أن يأتي بالجديد؟ وعلى أيّ جديد نتكلّم، إذا كنّا نعرف عن الآخر كلّ شيء؟ هل يعقل أن يتوقّع الزوج من الزوجة ما لايعرفه فيها؟ هل يمكن أن تتوقّع من الزوجة ما لا تعرفه في زوجها؟ وهكذا، فإنّ أحد أسباب الخيانة هي الملل من الآخر الذي نراه كلّ يوم، الأمر الذي يجعل كثيرين من المتزوّجين، لا ينظر أحدهم إلى الآخر بحبّ وفرح، وهذا خطأ كبير. ما الحلّ؟

يبقى أنّه لا غنى عن الجديد في البيت الزوجيّ. والجديد لا يأتي خداعًا للعينين. لا جديد في الحياة الزوجيّة، خارج مدرسة المحبّة والاحترام المتبادلين. ولكن من أين يأتي الجديد؟

إنّه يأتي، في الأساس، من يقين الزوجين معًا أنّ الجديد الحقيقيّ ليس منهما، إلاّ أنّهما قادران على عيشه وتجسيده. يأتي الجديد، إذا كان هناك إصرار على الاحترام المتبادل بين الفريقين أوّلاً. والاحترام المتبادل من شأنه أن يجعل المحبّة الزوجيّة دافئة وحلوة وجميلة. كيف سيأتي الشريك بما هو جديد تتوقّعه منه، إن كنت لا تحترمه، لا بل تحتقره بإصرار وعناد؟ من أين، أوّلاً، يأتي الجديد عند رجل يتمادى ويوغل في ضرب امرأته؟ أيّها الزوج، كيف لك أن تحبّ زوجتك التي تضربها؟ والمرأة أيضًا، في الكثير من الأحيان، تبوح بسرّ زوجها إلى القريب والغريب، عن غباوة، ظانّةً أنّ الثرثرة من هذا القبيل هي خدمة لها، وفرصة للانتصار في أمر ليست متيقّنة منه. أن تبوح المرأة بسرّ بيتها، فهذا يعني أنّها غير ناضجة، إذا كان الآخر الذي اقترنت به شريكًا للحياة أو شريكة للحياة، محبوبًا حقًّا. في هذا السياق، أودّ أن أقول لجميع المتزوّجين: لا يأتي الجديد من المظهر ومن المساحيق، لأنّ الجديد هو دائمًا قلب جديد. المساحيق على العموم، سيّما اذا استخدمت بتطرّف، إنّما هي دلالة على أنّ الجديد الحقيقيّ، والجمال الحقيقيّ، غير موجود. كيف

يتوقّع الرجل أمرًا جديدًا من جسد زوجته، إذا كان يظنّ أنّ الجديد يأتي من الجسد؟ لا يقدر الجسد على أن يأتي بالجديد. بهذا المعنى، فإنّ أوضاع الجماع، التي تشدّد عليها الفلسفات الجسديّة المعاصرة، هي افكار تافهة لا معنى لها. إتقان أوضاع الجماع لا يأتي بجديد. الجديد لا يأتي من التفنّن ومن التغيير. بهذا المعنى، فإنّ من لا يمسك بمفاتيح الحياة الحقيقيّة، لا يمكن لأيّ شيء أن يرضيه أو يشبعه أو يسعده. إنّ مرور بضعة سنوات على الزواج، على الدخول في الحياة الزوجيّة، من شأنه أن يقول للمعنيّين الكثير، إذا رغبوا في أن يسمعوا، وإذا كانوا قادرين على أن يدركوا. من هنا، فمن الظلم أن يطلب الجديد من المرأة، ما دامّ الرجل نفسه عاجزًا عن تقديم الجديد لزوجته. من الظلم أن تطلب من زوجتك شيئًا لا تقدر أنت على اعطائها إيّاه. كيف تطالبها بالنضارة، إذا كنت أنت نفسك تنزلق إلى ما هو نقيضها؟ كيف تطالبها بجسد شابّ، بينما جسدك نفسه بدأ ينزلق نحو الكهولة؟ لا تطلب منها ما ليس عندك، ولا يحقّ لك أن تطالبها بما لا تقدر أن تعطيها إيّاه. إن كنت تحبّ زوجتك، لا تطالبها بما لا تقدر على تحقيقه وتقديمه. إذا أدرك الزوجان هذه الحقيقة، يبدأ ذوبان جليد المشاكل، يبدأ الفرح. من هنا، ففي الخيانة، موضوع المقالة، المشكلة تكون في العمق عدم قدرة الرجل على رؤية نفسه على حقيقتها، وأيضًا عدم قبوله زوجته على حقيقتها. باختصار، سبب الخيانة ليس جنسيًّا في الصميم، وفي العادة، إن حصل، يأتي ليقول إنّ هناك مشكلات تتفاقم بين الزوجين. ولكن بكلّ تأكيد ليس جميع المتزوّجين يعرفون الخيانة الزوجيّة رغم الضعف البشريّ الهائل الذي يلفّ جميع البشر بدون استثناء. إنّ أساس الإقبال على الخيانة هو رغبة في التغيير، رغبة في الخلاص من أمر قائم يقلق، إلاّ أنّ المعالجة منحرفة وخاطئة. ولكن بكلّ تأكيد إنّ سرعة الإقبال على الخيانة، عند الرجل، هي أقوى وأكثر اندفاعًا، منها عند المرأة، لأنّ الزوج في المجتمعات الشرقيّة، عمومًا، يتربّى على الحرّيّة وعلى البقاء خارج البيت لفترات أطول، وتاليًا، فهو لا يحاسب. لقد تربّى الزوج على الحرّيّة، وعلى أنّه لا يحاسب، وتاليًا بمقدوره أن يسرح ويمرح كما كانت عادته قبل الزواج. أمّا الزوجة، فهي الأقلّ اندفاعًا إلى ذلك بطبيعة الحال، ليس لأنّها طاهرة، بل لأنّ المجتمع الشرقيّ لا يرحم تحرّكاتها ولا يطلق حركتها. هي أسيرة قيم مجتمعها، ولا تتمتّع بالحرّيّة التي يتمتّع بها الرجل.

الخيانة تنطلق بقوّة عندما لا يقتنع أحد الفريقين بالآخر. وفي الحقيقة، يظنّ كثيرون أنّ الخيانة تنحصر بالرجل دون المرأة، هذا صحيح إذا اعتبرنا أنّ الرجل هو الذي يغادر البيت في الليل وفي النهار.

ولكن يخطئ من ينسى أنّ الخيانة التي يمارسها الزوج هي في النهاية مع امرأة، وتاليًا فكلّ خيانة يشترك فيها خائنان من الجنسين. وإذا كانت الزوجة نفسها لا تعرف الخيانة، عليها أن تقف على السبب، كي تعيد زوجها إلى حظيرة العائلة، حبًّا بالبيت، وبالأولاد أيضًا.

ما أريد أن أقوله باختصار، هو أنّ الكلام على الخيانة الزوجيّة، هو كلام على فراغ في البيت الزوجيّ، فراغ في قلب الزوج، وفراغ آخر مماثل في قلب الزوجة الخائنة، أو المرأة الغريبة. وفي اعتقادي، إنّ الاقتناع بالزوج أو بالزوجة اقتناعًا عميقًا راسخًا، من شأنه أن يطيح بأعظم التجارب. عند الناضجين، هناك أمور صغيرة جدًّا تكون سلاحًا عظيمًا أمام أيّ ميل أو نزوع إلى مثل هذه الأفكار. الزوج العظيم يكفيه أن يقول ومن أعماق قلبه إنّ زوجته هي شريكة عمره، كي يستمدّ القوّة في وجه كلّ تجربة. يكفيه أن يقول: أنا أريد أن أكون محبًّا لكلّ أفراد عائلتي، حتّى يسحق كلّ تجربة. يكفيه أن يشعر بأنّه يجب أن يكون قدوة في بيته، كي تموت كلّ تجربة. يكفيه أن يتأمّل في مستلزمات أبوّته في البيت، كي تموت كلّ تجربة. الخطوة الأولى نحو الخيانة هي دائمًا احتقار الزوجة والأولاد معًا. ولكن هل الأمور تتوقّف عند هذا الحدّ؟ بالطبع لا، لأنّ أساس الحماية الحقيقيّة من تجارب الحياة المختلفة ليس حنكة بشريّة، أو بعض نضوج أو رصانة. الحماية الحقيقيّة هي دائمًا من اللّه. ويسوع يقولها لنا صراحة: «بدوني لا تقدرون على أن تعملوا شيئًا». إذًا، الإقبال على الخيانة الزوجيّة من هذا القبيل، هو احتقار كلّ محبّة اللّه للإنسان، وضرب لتدبير الفداء بعرض الحائط. وفي اعتقادي الخيانة الزوجيّة قابلة للزيادة في هذا الزمان. نحن في زمن ينادي بشيوعيّة الشهوة. ترى من يكبحها إن كانت مشاعة وشرعيّة كما هو حالها اليوم؟ فلينتبه كلّ واحد منّا لنفسه معتبرًا نفسه مسؤولاً عن كلّ تقصير في البيت، وإلاّ لن تسلم الحياة.

وأخيرًا، في اعتقادي أنّ ظاهرة الخيانة مرشّحة إلى المزيد لأنّ أغلب الذين يتزوّجون اليوم، يسعون إلى المظهر، إلى جمال الوجه، وجمال الجسد. هذا العصر جنسيّ بامتياز. الذاكرة البشريّة تشحن بالصور الجنسيّة اليوم، والخيال أيضًا. الحياة المعاصرة هي زمان الحرّيّة الجنسيّة. والمشكلة هي عندما تتغيّر الصورة التي جعلها الرجال في خيالهم، وفي ذاكرتهم عن المرأة المعشوقة. عندما يحصل هذا، فالعائلة القائمة تصبح عرضة للاهتزاز والسقوط. هذا واقع مرير، وحدوثه ممكن جدًّا. وعلينا في الحقيقة إذا أردنا السلام والأمان، أن نفتّش عن أسباب ديمومة أحلامنا، لا أن نبنيها على ما هو هشّ.